

البناء السردى لقصة "زغرودة الملايين" لرهفور ونيسي

الباحثة سماحي ليندة - جامعة سيدي بلعباس

الأدب الجزائري بكل ما فيه عظيم وجدير بالاهتمام والدراسة، فهو من أعرق الآداب وأغناها من حيث التراث لأنه يعتبر وليد الظروف التاريخية والسياسية التي عاشتها الجزائر، فالدارس للأدب الجزائري سيلمح لا محالة العديد من الأجناس الأدبية بما فيها القصة القصيرة التي مثلت صفحة هامة من تاريخ الجزائر المتعاقدة. فما المقصود بالسرد القصصي؟ ومتى نشأت القصة الجزائرية وكيف تطوّرت؟

سوف نتطرق لإبراز البناء السردى لهذا النص القصصي من خلال دراسة عنوان القصة وموضوعها ثم بعد ذلك ملامح الشخصية وعلاقتها بأحداث القصة.

تعتبر القصة القصيرة فن من الفنون الثرية التي شاعت عند العرب عامة والجزائريين خاصة، إلا أنها ظهرت متأخرة بالمقارنة مع الأجناس الأدبية الأخرى، ويعود ذلك للعامل الأول والأخير الاستعمار الفرنسي الذي أخر ظهور القصة في الجزائر، فقد عني الأدباء والكتاب عناية كبيرة بهذا الجنس الأدبي نظرا للدور الفعّال الذي لعبه هذا الجنس خاصة خلال أحقاب الاستعمار لأنه كان يصور الواقع المر الذي عاشه الشعب آنذاك.

فقد عبّر عن وقائع مستمدة من حياة الناس، لهذا يعتبر من أكثر الألوان الأدبية التي مسها التغير والتطور فبلغت النضج والنجاح والازدهار.

السرد القصصي:

هو جنس أدبي كباقي الأجناس الأدبية له مقوماته وملامحه المميّزة يعكس حقيقة المجتمع، أمّا السّارد فهو ذلك الضمير الذي يعكس بدوره صورة معينة في زمن ما لأنّه الوحيد الخبير بفنّه.

ويذهب عبد الملك مرتاض إلى أن: «أصل السرد في اللغة العربية هو تتابع الماضي على سيرة واحدة وسرد الحديث والقراءة من هذا المنطلق الاشتقاقي، ثم أصبح السرد يطلق في الأعمال القصصية على كل ما خالف الحوار، ثم لم يلبث أن تطور مفهوم السرد على أيامنا هذه في الغرب إلى معنى اصطلاحى أهم وأشمل بحيث أصبح يطلق على النص الحكائي أو الروائي القصصي برمته أي يعني الطريقة التي يختارها الراوي أو القاص ليقدم بها الحدث القصصي إلى المتلقي فكان السرد إذن "نسيج الكلام" ولكن في صورة حكي»⁽¹⁾.

فالمعمل السردى من منظور عبد الملك مرتاض هو كتابة يكتبها المؤلف ويتبعها ويراقب نسيجها ويطورها إلى أن يبلغ بها المنتهى الذي يود بلوغه والوصول إليه.

فقد دخلت تقنية جديدة اقتحمت الكتابات السردية القصصية حيث عمقت المفهوم الجمالي للنص القصي وأضافت إليه أبعاداً وأطراً فنية أخرجته من المفهوم التقليدي السابق إلى مفهوم واسع وجديد ومغاير تماماً يتصل بعلاقة السارد بالمسرود له وبالشخصيات الساردة وذلك من منظور السردانية الحديثة.

« لقد تطور مفهوم السرد وأصبح من المفاهيم المستحدثة في الساحة النقدية العربية ولذلك وجب فحص مدلولاته وضبطها»⁽²⁾. للسرد مفاهيم مختلفة تنطلق من أصله اللغوي الذي يعني مثل: التابع في الحديث وإعادة السياق، والسرد مصطلح نقدي حديث يعني المصطلح الذي يشمل على قص حدث أو أحداث أو خبر أو أخبار سواء كان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال.

فالسرد هو نسيج الكلام ينقل الحادثة من صورتها الحقيقية إلى صورة لغوية ليقدمها السارد إلى المتلقي وهذا ما سمي بشكل المضمون أو الشكل الحكائي.

وللسرد دور كبير في الربط بين أجزاء القصة وتتابعها تتابعاً فنياً فهو الكيفية التي تروى بها القصة فيهدف من خلالها إلى تصوير حدث قصصي متكامل.

ويكون ذلك وفقاً لعناصر الخبر: البداية، العقدة، النهاية، ولا يجوز للدارسين الفصل بين نسيج القصة وبنائها لأنهما تنتميان لشيء واحد⁽³⁾.

وما تخضع له القصة من مؤثرات بعضها متعلق بالراوي والمروي له والبعض الآخر بالقصة ذاتها.

السارد ← القصة ← المسرود له.

نشأة القصة القصيرة:

لقد شهدت مسيرة القصة الجزائرية ازدهاراً جديداً خاصة أثناء ثورة التحرير، لأنها مثلت تلك الأحداث أحسن تمثيل وعبرت عنها أصدق تعبير لأن

الثورة تعتبر من أهم القضايا التي أثارت اهتمام الكتاب القصاصين في الأدب الجزائري.

فهي بمثابة بصمة خالدة في أدبنا الجزائري، حيث كانت ولا زالت تعتبر همزة وصل تربط ماضينا وحاضرنا، لأن الماضي هو الحجر الأساس الذي نبني عليه حاضرنا.

ناضل الشعب الجزائري وكافح بكل كيانه من أجل تحقيق الحرية والاستقلال، فقد كانت القصة مرآة عاكسة لتلك الأحداث والوقائع التي وقعت، عبّر عنها الأدباء والكتاب من خلال نماذجهم الأدبية وإبداعاتهم.

لقد عرفت القصة العربية في الجزائر نضجاً مع بداية الثورة حيث أصبحت تتوفر على السمات الفنية الكاملة فيها. « فقد كانت علاقة الأدب الجزائري بالثورة التحريرية تحتاج إلى تأكيد كون هذه العلاقة كانت ولا زالت حميمة، فالكاتب الجزائري هذا الممتزج بالأرض روحاً ودماً فقد سخر قلمه لينفذ من ذاته أجمال ما تقوله الكلمة اعترافاً لهذا الوطن بجميله»⁽⁴⁾.

فقد أثرت الأمور السياسية على الأدب الجزائري بالدرجة الأولى حيث تنوعت الأجناس الأدبية وتعددت بما فيها القصة باعتبارها أكثر مصداقية وواقعية، فقد دفعت الثورة التحريرية القصة لكي تخطو خطوة إلى الأمام.

وقد حظيت بجزء هام من هذا التطور والتغيير الذي طرأ عليها ولهذا مسها التغيير، حيث تغيرت مواضيعها وتنوعت أشكالها وظهر جيل جديد من الكتاب دافعوا عليها بكل كيانهم، و طرحوا قضايا ما كانت لتطرح في تلك الفترة وتحول

محول الارتكاز من التقاليد والحب والمرأة إلى الإنسان والنضال والروح الجماعية، فالثورة كانت الحلم الذي لطالما راود النفوس، فقد برزت أسماء جديدة في الساحة الأدبية في طريقها الإبداعي القصصي والمسرحي ثم الروائي، ابتداء من السبعينات محمد أبو العيد دودو، الطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوفة وزهور ونيسي، هذه الأخيرة التي تعتبر من أدباء جيل الثورة التحريرية، وأبرز كاتبة للقصة القصيرة فهي من الأدبيات الجزائريات التي تتميز بغناها السياسي والاجتماعي والفكري والنضالي، كما أنها تعتبر من أكبر القاصين الجزائريين والعرب، فقد كانت موضوعاتها في مجملها تدور بين الحديث عن الثورة وعن المعاناة التي عاناها الشعب الجزائري، وقد مثلت تلك الفترة أحسن تمثيل، هذا ما جعلها محترمة وإنسانية مرغوب فيها من قبل الكثير، لأنها تميزت برهافة أحاسيسها، فقد برزت في العنصر النسوي في مجال القصة القصيرة فنجد بأن زهور ونيسي تدرك جيدا في لوحاتها أن بطلها الرئيسي هو المجتمع الجزائري وجزائريتها تمنعها من أن تفعل غير ذلك « فهي وليد واقع قرأته بعينها فكيف لها أن تخرج عن قاعدة المجموع»⁽⁵⁾. وقد تميزت قصصها بالصدق الفني وجاءت مطابقة لما عايشته ولما شاهدهته بأم عينها خاصة أحقاب الثورة التحريرية الجيدة، إذ يلحظ القارئ انعدام الخيالية في أعمالها لأنها نابعة من خلال رؤيتها الواقعية وهذا ما سنراه في البناء السردي لقصة "زغردة الملايين" التي تنتمي هي الأخرى إلى مجموعتها القصصية، لكنها تعبر عن واقع المجتمع الجزائري.

البناء السردي للقصة:

دلالة العنوان:

للعنوان دور أساسي في فهم المعاني العميقة للعمل الأدبي لأنه يعتبر عتبة النص التي يمكن من خلالها فهم معالمة وخفاياه واكتشاف كنهه، كما تقود إلى فك الكثير من ألغازه، فإذا قرأنا العنوان بطريقة قصدية يتضح من خلال عدة دلالات خفية كما يعتبر المؤشر الدلالي والمفتاح الأساسي في أي عمل أدبي يؤدي مباشرة إلى فهم الوظائف اللغوية من أجل فهم دلالات النص القصصي.

ولهذا اهتم به علماء السيميائية اهتماما واسعا في النصوص الأدبية نظرا لكونه نظاماً سيميائياً ذا أبعاد دلالية ورمزية يدفع القارئ إلى البحث والتقيب في دلالاته محاولاً بذلك فك شفرته الرامزة.

لذلك عدّ العنوان من أهم الأسس التي ارتكز عليها الإبداع الأدبي عامة والإنتاج القصصي خاصة حيث تناوله المؤلفون وأولوه عناية واهتماما واعتبروه بمثابة المدخل والعلامة التي تطبع وتسمي أي نص أدبي وتميزه عن غيره من النصوص الأدبية.

ومن بين الأدباء نجد زهور ونيسي التي وفقت كثيرا في انتقاء العناوين المناسبة لمجموعتها القصصية، فقد كانت القلب النابض للضمير الشعبي الجزائري خاصة أثناء الاستعمار الفرنسي، وقد قمنا بانتقاء عنوان من مجموع عناوينها القصصية ألا وهو "زغردة الملايين"، لقد وفقت القاصة إلى حد بعيد في اختيار هذا العنوان لقصتها. فعنوانها يدل على كونه يعكس المغزى المطلوب لمفهوم القصة وقد عبر

عن محتوى الخطاب السردي للقصة، وإذا قمنا بقراءة عنوان القصة مثل "زغرودة الملايين" نجد أن هذه الزغرودة دلالة على الفرح والبهجة التي عمت قلوب الشعب الجزائري عامة وسكان حي سلام باي خاصة. لقد كان هذا الخطاب السردى أكثر مصداقية وواقعية، والعنوان كان بمثابة الأرضية والمتنفس الذي لطالما راود النفوس، فقد كان عنواناً مهماً ومناسباً للقصة في نفس الوقت لأنه مثل أحداث الثورة على أرض الوطن.

فالثورة اعتبرت في حقيقتها ثمرة من ثمرات كفاح ونضال الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي أعطته حقه في الحياة والحرية والكرامة.

موضوع القصة:

الموضوع المعالج في هذه القصة هو الثورة، فهي تصور لنا معاناة أسرة جزائرية إبان الاستعمار وكان بطلها (الشيخ عمر وعائلته). حيث كان إماماً في المسجد فقد استطاع أن يحرك بخطبه الوطنية الأسبوعية التي كان يلقيها بمشاعر الخير على الوطن والرغبة في الكفاح والمقاومة حيث كان سكان حي سلام باي ينامون ويصحون على حلم الانتصار والاستقلال.

وقد كانت تلك الزغرودة سبباً في انطلاق المظاهرات التي عمت كل أرجاء الوطن حيث كانت انطلاقاً موفقة وبداية حافلة بالآمال والتطلعات إلى مستقبل مشرق وزاخر بالأفراح والانتصارات.

لقد جاء موضوع هذه القصة معبراً عن الواقع لأن القاصة ركزت رؤيتها الفنية على الضمير الشعبي الثائر الذي تصدى للمقاومة والاستبداد.

دراسة ملامح الشخصية في القصة وعلاقتها بالحدث:

مفهوم الشخصية:

تلعب الشخصية دوراً أساسياً في بناء القصة لأنها تعتبر المصدر الأساسي للمتعة بالنسبة للقارئ، فالأشخاص والأبطال هم عنصر ضروري وأساسي لتحريك القصة، وهؤلاء هم مركز اهتمام القارئ أو المتلقي حيث يحققون له متعة جمالية وفنية. ووجود الشخصية لا يثبت إلا من خلال ما تقوم به من أحداث وما تؤديه من أقوال، وهذا التداخل الواضح يشكل مظهرًا إيجابيًا في بناء القصة.

وموضوع الشخصية تناوله علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا من جهة وعلماء النفس بمدارسهم واتجاهاتهم المختلفة والمتعددة من جهة أخرى، وفي هذا المجال يقول أحد علماء النفس العرب: «معنى الشخصية من أشد معاني علم النفس تعقيداً وتركيباً لأنه يشمل جميع الصفات الجسدية والوجدانية والعقلية والخلقية في حالة تفاعلها بعضها مع بعض وتكاملها في شخص معين يعيش في بيئة اجتماعية معينة...»⁽⁶⁾. لأن المتلقي بطبعه ميال إلى دراسة النفس وتحليلها ومعرفة ما يختلجها من مشاعر وأهواء، حتى أنه في كثير من الأحيان يشعر بأنه هو الشخص المقصود من خلال تشابه ظروفه الاجتماعية والنفسية مع ظروف البطل.

ويشترط في القصة اعتماد عنصر التشويق والتصوير الفني حيث يترسخ في ذهن القارئ، وعلى كتاب القصة بذل قصارى جهدهم لرسم الشخصية وجعلها في مستوى الشخص. فمهمة القاص هي أن يجعل المتلقي يحس بالشخصية المتخيلة وكأنها تتحرك أمامه، كما لو أنها حقيقة من الواقع والمجتمع «فصدق القصة في مدى التجسيد والتشخيص الذي يمنح الحياة للشخصية»⁽⁷⁾.

لقد صنعت زهور ونيسي من خلال شخصياتها محور أساس الفكرة الوطنية وجسدت فيها روح السيادة الوطنية، حيث استطاعت من خلال القصة تصوير ذلك الواقع المر الذي عاشته الجزائر وذلك من خلال تمثيل شخصيات أعطت صور حية صادقة للقصة بالإضافة إلى أن قضية الوطن هي قضية الجميع.

وتظهر علاقة الرغبة عند (الشيخ عمر) عندما رغبّ وحبّ سكان الحي في الكفاح والمقاومة من خلال خطبه الأسبوعية التي كان يلقيها على مسامع المصلين، فهو شخصية ثائرة لأنه كان يقوم بتوعيتهم وتثقيفهم ونشر روح الوطنية فيهم.

ثم بعد ذلك تظهر علاقة تواصل بين أم سماك وابنها، فقد كانت أم سماك شخصية قوية تكتم في قلبها تلك المشاعر والعبارات قامت بتفجيرها حين انطلقت زغرودة منها قوية مجلجلة، ثم ابنها البطل الصغير سماك حيث كان يطرح عليها أسئلته الحيرة والمعقدة، فقد كان هناك تواصل بين الأم وابنها، ثم حالته زهيرة وابن عمه مبارك اللذان كانا يتبادلان أطراف الحديث في علاقة تواصل بسرية تامة فوق سطح المدرسة وذلك للتخطيط للمظاهرات، فاندلعت مظاهرات 11 ديسمبر 1960 وشاركت فيها عائلة (الشيخ عمر).

فقد ساعدت هذه الشخصيات إلى حد ما في تركيب وتكوين صورة حية صادقة لصورة الحدث ومثال على ذلك الحدث الثوري الذي وقع ليلة 11 ديسمبر 1960 حيث خرج الشعب دفعة واحدة في شوارع الجزائر بعد سماع تلك الزغرودة القوية والمجلجلة التي خرجت من فم أم سماك عند رؤيتها لعلم الثورة بيد شاب نزل من سيارة لينطلق الجيران ثم الحي بأكمله.

لقد كانت هذه الانتفاضة انتفاضة الصبر المخزون كل ذلك بإيمانهم المطلق بالكفاح المسلح، فالإعلان عن انطلاق مظاهرات 11 ديسمبر 1960

التي عمت كافة أرجاء الوطن كانت انطلاقاً موفقة وبداية حافلة بالأمل والتطلعات إلى مستقبل مشرق وزاهر وزاخر بالأفراح.

بعد هذه الدراسة المتواضعة توضح أن نشأة القصة الجزائرية القصيرة كانت متأخرة بالمقارنة مع الأجناس الأدبية الأخرى وهذا راجع للثورة وما أحدثته من تغيرات أثرت على ظهور القصة إلا أنها كانت حافزاً أعطى للقصة ثراءها وغناها لأنها ساهمت في بعث الشخصية الجزائرية تركب آثارها في نفوس الجزائريين بدرجة كبيرة، دون أن ننسى دور القاصة التي أجادت في توظيف التراث حيث استطاعت أن توظف عدة مظاهر من المجتمع واتخذت بتلك القصة نموذجاً لها. أما بالنسبة للشخصيات فقد جعلتها أكثر حركة وانفعالا كما أنها تميزت بالصدق لأن أحداثها كانت مطابقة للواقع التي كانت تعيشه البيئة الاجتماعية الجزائرية.

الهوامش

- 1) عبد القادر بن سالم، مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد (بحث في التجريب وعنف الخطاب عند جيل الثمانينات)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2011، ص 53؛ نقلاً عن عبد الملك مرتاض، ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيك للكاتب جمال بغداد)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص 84.
- 2) مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد السيميائي الإشكالية والأصول والامتداد، 2003/2004، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 46.
- 3) ينظر رشاد رشدي، فن القصة القصيرة، دار العودة، بيروت، ط1، 1985، ص 122.
- 4) عبد القادر بن سالم، مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد، اتحاد الكتاب العرب، 2001، دمشق، ص 16.
- 5) أحمد دوغان، شخصيات في الأدب الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ص 112-113.
- 6) أحمد بن نعمان، سمات الشخصية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 115.
- 7) محمد يوسف، فن القصة القصيرة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص 90.